السيد محمد رشيد رضا

صاحب المنار

والأستاذ الكبير عباس محمود العقاد

أبى للعصور كل الإباء أن يذهب تعقيباً على المقال الذي نشره في العدد ١٢٨٦ من المصور الصادر في ٣ يونيو سنة ١٩٤٩ في تجريح إمام من أعظم أئمة المسلمين في تاريخ العصور وهو السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار رضي الله عنه وأرضاه [illegible] من حماية الحق والعدل والحرية وهي عناصر الحياة الاجتماعية التي [illegible] بالأمة الإسلامية إلا لصيانتها والذود عنها ، [illegible] شيخ [illegible] الذي يعرف كيف يحمي الحق والعدل والحرية ويأمر بالإحسان للناس [illegible] يرشدونه .

وإني لأرجو من نشر هذا المقال أن أرد للسيد الإمام اعتباره وأرجو أن يكون باعثه حضرة الكاتب الكبير من [illegible] فيه قد [illegible] لي ما أردت وإلا فلم يبق إلا أن أرجو من حضرته أن يتفضل بنشر ما بقي عنده لعلي أستطيع أن أبين وجه الصواب فيما كتبته في هذا فيستريح فؤادي .

عبد الله [illegible]

كتب الكاتب الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد في العدد ١٢٨٦ من المصور الصادر في ٣ من يونيو سنة ١٩٤٩ تحت عنوان : « أعلام ومعرض [illegible] كما عرفتهم » : « وهذا عالم لا يعني بالمعارف العصرية » : مقالاً في السيد الإمام محمد رشيد رضا صاحب المنار .

وكان قد كتب مثل هذا المقال فيه أيضاً في العدد ١٨٢ من جريدة روز اليوسف اليومية الصادر في ٥ من سبتمبر سنة ١٩٣٥ فجمعت المقالين ودرستهما فوقع في نفسي أنهما أقرب الى الذم منهما الى المدح .

غير أني واثق من أن حضرة الكاتب الكبير لم يرد مدحاً ولا ذماً وإنما أراد أن يكون مؤرخاً منصفاً بريئاً من التحيز والمحاباة فيذكر الحسنات والسيئات جميعاً كما قال في آخر مقاله الأول وهو : « لو كان الغرض من التأبين أن يقال عن كل إنسان إنه أفذ كل الفائدة لبطل معناه ولحق بالقول الجزاف الضائع في الهواء . وقد شبع الشرقيون من القول الجزاف حتى اكتظوا كظة لا يجد معها مزيد فلنعرف الرجل حقه فننصفه »

وننصف التاريخ مما يَبخَسُ العاملين حقوقهم في الواقع إلاّ أولئك الذين يَرَوْن مَ عملوه قليلاً لا يكفي للثناء والتقدير فيزيدون عليه ما لم يعملوه ومالم يستحقوه وهذا هو البخس بعينه ونقص التقدير في أنقص معانيه :

وإني لأؤيّده في هذه القاعدة الذهبية كلّ التأييد وقد كان السيد الإمام نفسه من المؤمنين بهذه القاعدة العاملين بها وهي هي نفسها طريقة أهل السنة من الأئمة الذين عُنوا بجمعها وبدراسة رواتها وبالجرح والتعديل.

وما كان لي أن أتوقع من حضرة الكاتب الكبير الرأي ولا من السيد الامام المرثي المحاباة في مثل هذا المقام ولا في غيره لأن المحاباة جناية على التاريخ تأبى النفسُ الكبيرة أن تتردّى فيها . وما أقبح نفسا تتردّى في هذه الهاوية .

ولذلك تجد المرثي نفسه حين رثى صديقه شاعر العرب الشيخ عبد المحسن الكاظمي العراقي رحمه الله في آخر عدد أصدره من المنار وهو الجزء الاول من المجلدة الخامسة والثلاثين من مجلدات المنار لم يتحرّج أن يذكر ما يعرفه في المرثي من نواحي الضعف لأنه لا يستطيع أن يقول غير ما يعرف وما يعتقد ولا يستطيع أن يمكت عن قول ما يعرف وما يعتقد ولأنّ النقص من شيمة الإنسان والكمال المطلق لله وحده .

وهذه القاعدة نفسها هي التي تضطرني اضطراراً وتدفعني دفعاً الى بيان وجوه الحق والحقيقة فيما نسبه حضرة الكاتب الكبير الى السيد الامام في مقاليه المذكورين . في المقال الأول منها :

(١) أنه كان مصلحاً بالكتابة والتعليم على البعد ولم يكن مصلحاً بوحي الحضور وروح الشخصية كما كان جمال الدين ومحمد عبده ودُعاةُ هذا القبيل.

(٢) وأنّ ضعفه لا يرجع إلى قلة العلم كما يرجع إلى قلة الإلمام بالنفسيات ومسالك العواطف والشعور واستدلّ على قلة الإلمام بالنفسيات بما كان منه مع مشركي الهنود حين كان في الهند وبحديثه الى الناس في المسجد المجاور لمنزل المرحوم الشيخ عبد الرحيم الدمرداش باشا وكان الموقف موقف هداية وإصلاح .

(٣) أنه أقدر رجل في زمانه على كشف الشبهات وحل المشكلات التي تساور عقول

الأوساط من المتعلمين قراء الفقه والدين وأنه إذا بدا عليه الضعف أحياناً فإنما يبدو عليه حينما يعترضه سؤال سائل أعلم من هذه الطبقة توحي إليه بشبهات أعظم من تلك الشبهات.

وفي المقال الثاني منها قوله:

(٤) ولكنني أسائل نفسي دائماً بعد قراءتها «مجلة المنار» من أين يسلم بالنفس هذا الشعور بشيء غير مستساغ في كثير مما يكتبه الشيخ رشيد وهذا رأي كثير من القراء أيضاً.

ثم قال: إنه ضرب من الحاجة إلى الصقل ولا سيما الصقل من ناحية الكياسة والفكاهة.

(٥) عناية الشيخ بالاطلاع على المعارف العصرية العامة أقل بكثير من عنايته بالإطلاع على مسائل الفقه والدين.

واستدل على ذلك بأن الشيخ كأنه تحوم شبهة حين جمع الأستاذ يعقد صلة بين الكبد وبين بعض الأمراض وبأنه توقف في فهم المقصود من لفظ منو وهو عبد الله مينو

(٦) وأن السيد الإمام أبي أن يبيعه الجزء الثاني من تاريخ الأستاذ الإمام إلا مع الجزء الثالث منه مع وعده إياه بأنه سيشتري الجزء الثالث قريباً وقد كان يتوقع إهداء إياه من غير الجزأين معاً.

(٧) وأن حديثاً دار بينهما في المترو في صدق الرسالة فكان دليل حضرة الكاتب الكبير على قدر فهمي، أرجح من دليل السيد الإمام.

هذه هي كل المعايب التي وردت في المقالين.

(١) فأما أنه كان في دعوته إلى الهدى والإصلاح بالكلام أقل من الإمامين الجليلين الحكيمين السيد جمال الدين والأستاذ الشيخ محمد عبده تأثيراً فهذا صحيح فقد كان همهما الأكبر أن يتركا رجالاً يحفظون آراءهم ويعرفون مقاصدهم في الإصلاح ويسلكون طرقهما فيه لا أن يدونا كتباً وقد كان في وسع كل منهما لو شاء أن يكتب في الهداية والدعوة إلى الإصلاح عشرات المجلدات وكان هم السيد الإمام خليفتهما أن يدون علمه المقتبس منهما ومن أئمة الإصلاح السابقين والمندرج على منوالهم، وأن ينشره بالكتابة في أنحاء العالم وقد ترك أكثر من أربعين مجلدة من مجلدات المنار وغيره ملأت مشارق الأرض ومغاربها علماً ونوراً وهداية ركن إنسان مبصر لما حقيق له

ولا أقول إن السيد الإمام كان مصلحاً بالكتابة والتعليم على البعد دون المشافهة ووحي الحضور كما يقول حضرة الكاتب الكبير وإنما أقول: إنه كان مصلحاً بالكتابة وبالمشافهة في البعد والقرب غير أنه كان بالكتابة أمتن تحريراً في الطروس وأبلغ تأثيراً في النفوس منه بالمشافهة ولذلك أسباب: —

منها: رغبته في انتشار دعوته في العالم الاسلامي كله بأخصر طريق وأقصر وقت وهذا لا يكون إلا بالكتابة، ومن أجل ذلك أنشأ المنار وعكف على تحريره وعلى الكتابة في الصحف السيارة وعلى تأليف الكتب وهذا من شأنه أن يشحذ فيه ملكة الكتابة ويزيدها قوة على قوتها ويرد ملكة الكلام عن أن تساميَ ملكة الكتابة فيه حتى أصبح قلمه أعلى بلاغة وأوضح بياناً من لسانه. ومنها: توارد المعاني الكثيرة على ذهنه حين الكلام الشفوي وانبعاث نفسه في المشافهة بما لا يبيحه لها في الكتابة من الاستطراد والخروج من موضوع الى موضوع فيضيع على السامع القصد وإن كان هو من شأنه أن يحتفظ دائماً بجوهر الموضوع الأصلي وبالعود اليه وإيفائه حقه من الكلام. ومنها: حماسته الملتهبة التي تزيدها أحياناً المناقشة أو الضجر حدة فيتعسر على مخاطبه متابعته. ومنها أنه ما كان يتكلم غالباً ولا يخطب إلا لعيد ونطق من أمره إلا ارتجالاً. أما الكتابة فمجال الدرس والتمحيص والتحرير وبلا شك فيها أوسع منه في الكلام ولهذا كان في تحريره أبلغ تأثيراً وأوضح بياناً منه في كلامه وليس هذا بضائره.

(٢) وأما قلة إلمامه بالشعب فهذا وصف لا يمكن أن يصدق بأية حال من الأحوال في السيد الامام وهو الذي عرف روح الاسلام أصدق معرفة وخبر العالم الاسلامي أعظم خبرة وزار أكثر أقطاره وأقام فيها وامتزج بشعوبها امتزاج الماء بالعود والدم بالعروق واندمج مع العاملين على تحريرها طول حياته في البلاد السورية والمصرية والتركية والهندية والعربية وفي أوربة والأمثلة التي ساقها حضرة الكاتب الكبير لا تنهض حجة له ذلك أن السيد الامام ما كان واعظاً دينياً للعوام يشوقهم الى الفضيلة وينهاهم عن الرذيلة فيحتاج الى الاحتيال عليهم واستمالتهم بما يلائم أهواءهم من الطرق إنما كان مصلحاً دينياً اجتماعياً سياسياً يريد أن ينتشل الأمم الاسلامية من مجاهل الضلالة العمياء والذل والاستعباد

عليه الصلاة والسلام كافٍ للدلالة على وحي القرآن لأنه (ص) لم يأت بمثل هذه البلاغة قبل الأربعين. وكان يشكو انقطاع الوحي فترة بعد نزول القرآن الكريم عليه: دليل على صدق الرسول (ص) في أن القرآن من عند الله لا من عنده هو. والدليل الذي ذكره حضرة الكاتب الكبير وهو: وإنما المعجزة الكبرى هي الرسالة المحمدية التي لا ينهض بها فرد ولا أمة بغير معونة إلهية وإنما المعجزة الكبرى هي أثر القرآن في الضمائر وأثره في تواريخ الأمم الاسلامية وغيرها: دليل على إعجاز القرآن لأن القرآن معجز بلفظه ومعناه جميعاً.

وكلا الدليلين حسن صحيح لازم، وكلاهما لا يفوت السيد الامام. غير أن مكان الحديث حينئذٍ وزمانه وهو في قطار سريع بين مصر الجديدة والقاهرة والمسافة قصيرة والمركب عام لم يكن يصلح للاسترسال في مثل هذا الحديث ولذلك دُعي حضرة الكاتب الكبير لمقابلة خاصة في مكانٍ خاص ووقت أوسع فلم يجب ولو أنه أجاب وتردد على الداعي غير مرة لتغيّر رأيه فيه وحكمه عليه. أما أن النابغة الذبياني ما سمي نابغة في بعض الأقوال إلا لأنه لم يقل الشعر إلا وهو رجل وأنه وغيره أجبل أي انقطع عنه الشعر فترة فان بين النابغة وبين الرسول (ص) فرقاً يقضي على هذا التمثيل: فالنابغة وُلد ونشأ في بيئة شعرية للشعر فيها المقام الأسمى الذي لا يطمع في السمو إليه مقام، فالشاعر هو حامي القبيلة ورافع لوائها وسجل تدمرها وهو فخرها في المجامع وعدتها في الشدائد عليه تعتمد وبه تعتز، فمن المؤكد أن نبوغه وليد هذه البيئة ولا بد أنه كان في صباه يحب الشعر ويحفظه ويرويه ويكد في نظمه قبل أن يظهر بأول رائعة من روائعه أما الرسول (ص) فقد نشأ في جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء، ليس للشعر فيها ذكر. وقد جاء بشيء لا عهد للدنيا به جاء بقرآن لا هو شعر ولا هو نثر مرسل وهو مع ذلك كما قال حضرة الكاتب الكبير آنفاً جامع لخير البشر في الدنيا والآخرة فأين شعر النابغة بل شعر شعراء الجاهلية مجتمعاً منه.

عبد الله أمين